موسوعة الصلاة

مختارات من ذوق الصلاة

من نصوص ابن القيم وغيره، كما جمعت في موسوعة الصلاة

نسخة تجريبية للمكتبة الرقمية

ذوق الصلاة، من العادة إلى قرة العين

ما معنى أن «يتذوق» المصلي صلاته؟ مدخل إلى هذا الباب من كلام ابن القيم، ومثل المأدبة التي يدعى إليها القلب خمس مرات، والفرق بين «أرحنا بها» و«أرحنا منها».

ما «ذوق الصلاة»؟

الذوق هنا: أن يجد القلب للصلاة طعما ولذة، فتصير قرة عين بعد أن كانت حملا ثقيلا. وقد عقد ابن القيم فصلا سماه «الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة»، وقال فيه:

> «ولا ريب أن الصلاة قرة عيون المحبين، ولذة أرواح الموحدين، ومحك أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمته المهداة إلى عبيده، هداهم إليها، وعرفهم بها، رحمة بهم وإكراما لهم.»

ثم بين أن للصلاة حظين، حظا للجوارح وحظا للقلب، وأن حظ القلب أعظمهما:

> «وتعبد بها القلب والجوارح جميعا، وجعل حظ القلب منها أكمل الحظين وأعظمهما، وهو إقباله على ربه سبحانه، وفرحه وتلذذه بقربه، وتنعمه بحبه، وابتهاجه بالقيام بين يديه.»

مثل المأدبة: خمس دعوات في اليوم

شبه ابن القيم الصلاة بمأدبة هيأها الله لعبده، جمعت ألوانا من العطايا، «ودعاه إليه كل يوم خمس مرات، وجعل في كل لون من ألوان تلك المأدبة لذة ومنفعة ومصلحة لهذا العبد ... ليست في اللون الآخر». فكل فعل من أفعال الصلاة طعام للقلب لا يقوم غيره مقامه.

> الفجر الظهر العصر المغرب العشاء «ولما كانت الجدوب متتابعة، وقحط النفوس متواليا، جدد له الدعوة إلى هذه المأدبة وقتا بعد وقت رحمة منه به». —الكلام على مسألة السماع لابن القيم (ص 110)

ولماذا تتكرر الدعوة؟ لأن القلب يجف بالغفلة كما تجف الأرض بانقطاع المطر:

> «فإن الغفلة التي تنزل بالقلب هي القحط والجدب، فما دام في ذكر الله والإقبال عليه فغيث

> الرحمة واقع عليه كالمطر المتدارك، فإذا غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة وكثرة.»

«أرحنا بها» لا «أرحنا منها»

هذا هو الفرق بين من ذاق الصلاة ومن لم يذقها. قال ابن القيم في «الوابل الصيب»:

> «فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها لا منها. فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ: يا بلال أرحنا بالصلاة. ولم يقل: أرحنا منها.»

وقال في «الكلام على مسألة السماع» يصف الفريقين:

> «فالفرق بين من كانت الصلاة لجوارحه قيدا، ولقلبه سجنا، ولنفسه عائقا، وبين من كانت الصلاة لقلبه نعيما، ولعينه قرة، ولجوارحه راحة، ولنفسه بستانا ولذة.»

هل يتحول الثقل إلى لذة؟

نعم، وهذه بشارة لمن يجد في صلاته تعبا اليوم. قال ابن القيم في «مدارج السالكين»:

> «فإن السالك في أول الأمر يجد تعب التكاليف ومشقة العمل لعدم أنس قلبه بمعبوده، فإذا حصل للقلب روح الأنس زالت عنه تلك التكاليف والمشاق، فصارت قرة عين له وقوة ولذة، فتصير الصلاة قرة عينه بعد أن كانت عبئا عليه، ويستريح بها بعد أن كان يطلب الراحة منها.»

فالطريق يبدأ بمجاهدة، ثم يصير أنسا. وانظر منازل هذا الطريق في مراتب الناس في الصلاة.

الموقفان

ومن أجمع ما قاله ابن القيم في هذا الباب، في كتابه «الفوائد»:

> «للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه؛ فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف.»

مراتب الناس في الصلاة

قسم ابن القيم المصلين خمس مراتب، من الظالم لنفسه إلى المقرب الذي وضع قلبه بين يدي ربه، مع مخطط يوضح الصعود من مرتبة إلى مرتبة.

قال ابن القيم في «الوابل الصيب»: «والناس في الصلاة على مراتب خمسة». ثم وصف كل مرتبة، وبين جزاءها. والمخطط الآتي يرتبها صعودا من الأدنى إلى الأعلى:

> القرب البعد ٥ الواضع قلبه بين يدي ربه مقرب «من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه، ناظرا بقلبه إليه، مراقبا له، ممتلئا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه.» ٤ المستغرق في إقامتها مثاب «من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئا منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها.» ٣ المجاهد لعدوه مكفر عنه «من حافظ على حدودها وأركانها، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.» ٢ المحافظ على الظاهر المضيع للمجاهدة محاسب «من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.» ١ الظالم لنفسه المفرط معاقب «وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.» «فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه؛ لأن له نصيبا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة». — الوابل الصيب لابن القيم (ص 23)

بين المرتبتين الرابعة والخامسة

صاحب المرتبة الرابعة قد أتقن صلاته، واستغرق همه في إقامتها. أما صاحب الخامسة فقد زاد على ذلك أن قلبه مع ربه «كأنه يراه ويشاهده». وهذا هو مقام الإحسان الذي بينه النبي ﷺ لجبريل:

> قال النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه

يراك رواه البخاري (50)

ولهذا قال ابن القيم عن صاحب المرتبة الخامسة: «فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه، قرير العين به».

صلاتان في صف واحد

نقل ابن القيم عن حسان بن عطية قوله:

> «إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.»

ثم علله بقوله: «وذلك أن أحدهما مقبل على الله عز وجل، والآخر ساه غافل».

المرتبة الثالثة: صلاة وجهاد

لا يظن من تكثر عليه الوساوس أنه خارج عن الطريق. فصاحب المرتبة الثالثة «مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد»، وجزاؤه أنه «مكفر عنه». فالمطلوب ألا يسترسل المصلي مع الوساوس كصاحب المرتبة الثانية، بل يردها كلما عرضت. وانظر وسائل ذلك في أسباب الحضور وعلاج الشواغل.

الثمرة: قرة العين

ختم ابن القيم كلامه على المراتب بقوله:

> «فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة، وقرت عينه أيضا به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.»

القلب في الصلاة، ثلاثة قلوب وثلاثة بيوت

لماذا يوسوس الشيطان لبعض المصلين دون بعض؟ تقسيم ابن القيم للقلوب ثلاثة، ومثاله البديع بالبيوت الثلاثة واللص، وأن للجوارح عبودية تتبع قيام القلب.

الشيطان يحضر الصلاة

> عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل، حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى رواه البخاري (608)

وبين ابن القيم سبب حرص الشيطان على الصلاة خاصة:

> «والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربه وأغيظه للشيطان وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد أن لا يقيمه فيه.»

ثلاثة قلوب

ثم قسم القلوب بحسب حال الشيطان معها، ومثلها بثلاثة بيوت:

> البيت الخالي قلب خال من الإيمان قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذ بيتا ووطنا. ولهذا قيل لابن عباس: إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها، فقال: «وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟». بيت العبد قلب فيه نور وشهوات قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطان هنالك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال. وهو البيت الذي يشن عليه اللص الغارات. بيت الملك قلب محشو بالإيمان قلب قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، فلنوره في صدره إشراق، لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم. مثل ابن القيم القلوب بثلاثة بيوت جاءها لص يسرق: البيت الخالي لا شيء فيه يسرق، وبيت الملك عليه الحرس والملك حارسه بنفسه، «فلم يبق

للص إلا البيت الثالث فهو الذي يشن عليه الغارات». — الوابل الصيب لابن القيم (ص 24–25، بتصرف يسير)

ومن هذا المثال يفهم سر كثرة الوساوس عند من في قلبه إيمان: ليست علامة خراب القلب، بل علامة أن فيه ما يطمع في سرقته. ولهذا قال ابن عباس لمن قال إن اليهود لا يوسوسون في صلاتهم: «وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟».

متى يقوى القلب على الحضور؟

قال ابن القيم في أول فصل «أنواع القلوب»:

> «وإنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه عز وجل إذا قهر شهوته وهواه، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة وأسره الهوى، ووجد الشيطان فيه مقعدا تمكن فيه، كيف يخلص من الوساوس والأفكار؟»

وبين أن الحضور والالتفات يتعاقبان: «فإن فر إلى الله تعالى وأحضر قلبه فر الشيطان، فإن التفت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة».

القلب شجرة، والجوارح أغصانها

وفي «الكلام على مسألة السماع» شبه ابن القيم القلب الذي يسقى بالذكر بشجرة رطبة، إذا مددت غصنا منها إلى أمر الله انقاد معك:

> «فإذا كان القلب ممطورا بمطر الرحمة كانت الأغصان لينة منقادة رطبة، فإذا مددتها إلى أمر الله انقادت معك، وأقبلت سريعة لينة وادعة ... وإذا يبس القلب تعطلت الأغصان من أعمال البر.»

ثم قال: «ولله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تخصه، وطاعة مطلوبة منها، خلقت لأجلها وهيئت لها ... والصلاة وضعت لاستعمال الجوارح جميعها في العبودية تبعا لقيام القلب بها».

فإصلاح الصلاة يبدأ من القلب، ثم تتبعه الجوارح. وانظر عبودية كل جارحة في أسرار أفعال الصلاة.

أسرار التسليم، كيف تخرج من الصلاة؟

التسليم آخر الصلاة وتحليلها. لماذا كان الدعاء قبله أرجى للإجابة، وما الذي يقوله المصلي بعده، مع نصوص ابن القيم وحديث ثوبان في صحيح مسلم.

دخلت الصلاة بالتكبير فحرم عليك كل ما سواها، وتخرج منها بالتسليم فيحل لك ما كان ممنوعا. فالتسليم ليس انصرافا عاديا، بل خاتمة لقاء.

> عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم رواه أبو داود (61)، وقال الألباني: حسن صحيح

الدعاء قبل السلام

قبل أن تسلم أنت في أقرب مواضع الصلاة إلى الإجابة. يقول ابن القيم:

> «فكأن المصلي توسل إلى الله سبحانه بعبوديته، ثم بالثناء عليه، والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، ثم بالصلاة على رسوله، ثم قيل له: تخير من الدعاء أحبه إليك. فذاك الحق الذي عليك، وهذا الحق الذي لك.» — كتاب الصلاة (ص 375)

ثم يبين سر ذلك:

> «وسر ذلك: أن المصلي قبل سلامه في محل المناجاة والقربة بين يدي ربه، فسؤاله في هذه الحال أقرب إلى الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يدي ربه.» — كتاب الصلاة (ص 378)

تمرين: اختر الليلة حاجة واحدة تهمك، وادع بها في كل صلاة قبل السلام، وأنت تستحضر أنك ما زلت بين يدي ربك.

هل يتعين الخروج بالتسليم؟

مسألة فيها خلاف فقهي: التسليم ركن أم لا؟

ذكر ابن القيم في «تهذيب السنن» (1/30):

- جمهور العلماء: لا يخرج المصلي من الصلاة إلا بالتسليم.
- أبو حنيفة: لا يتعين التسليم، بل يخرج منها بما ينافيها من حدث أو عمل مبطل ونحوه.

أول ما تقوله بعد السلام

> عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام رواه مسلم (591)

وقفة تأمل: أول كلمة بعد الصلاة استغفار. كأن المصلي يعتذر عن تقصيره في أعظم عبادة أداها، فلا يخرج معجبا بعمله. ثم يثني على ربه باسمه «السلام» الذي ختم به صلاته.

ثلاث وقفات قبل أن تقوم

1. ادع قبل السلام بحاجتك، فأنت في محل المناجاة.
2. سلم بهدوء، ولا تقم كمن يتخلص من عبء.
3. استغفر ثلاثا، وقل ما كان النبي ﷺ يقول، ثم انظر مقال «أثر الصلاة بعد التسليم».

الذوق في قيامِ الليل

لماذا كانت صلاة الليل أفضل الصلاة بعد الفريضة؟ معنى ﴿ناشئة الليل﴾ في تفسير السعدي، وحديث النزول الإلهي، وقيام النبي ﷺ حتى تتفطر قدماه، مع خطوات عملية للبدء.

في الليل تهدأ الأصوات، وينام الناس، ويبقى العبد وحده مع ربه. لذلك كان قيام الليل مدرسة الذوق في الصلاة.

أفضل الصلاة بعد الفريضة

> عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل رواه مسلم

لماذا الليل؟

> ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا﴾ [سورة المزمل: الآية 6]

> ﴿إن لك في النهار سبحا طويلا﴾ [سورة المزمل: الآية 7]

قال السعدي في تفسيرها:

> «﴿إن ناشئة الليل﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هي أشد وطئا وأقوم قيلا﴾ أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.» — تفسير السعدي (ص 892)

فالليل يجمع ما يفرقه النهار: القلب واللسان معا، والشواغل قليلة.

ربك ينادي في الثلث الأخير

> عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له رواه البخاري (1145)

ثلاثة أبواب مفتوحة كل ليلة: دعاء يستجاب، وسؤال يعطى، واستغفار يغفر.

قيام الشكر

> عن عائشة رضي الله عنها: أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا رواه البخاري (4837)

لم يكن قيامه ﷺ لطلب المغفرة وحدها، بل شكرا ومحبة. وهذا هو الذوق: أن تقوم لأنك تحب أن تقف بين يدي ربك.

خطوات للبدء

ليست هذه أحكاما، بل اقتراحات عملية:

1. ابدأ بركعتين قبل الوتر، فـ«صلاة الليل مثنى مثنى» (البخاري 990).
2. اختر وقتا ثابتا، ولو قبل النوم، ثم تدرج إلى الثلث الأخير.
3. رتل ما تحفظه ولو كان قصيرا، وتوقف عند آية تمس قلبك.
4. ادع في سجودك بحاجتك، واستحضر النداء: «من يدعوني فأستجيب له».
5. سجل نوافلك في خطتك اليومية.